الفصل الرابع

عبقرية ابن الرومى

فرغنا فى الفصل السابق من حياة ابن الرومى لنتكلم فى هذا الفصل عن عبقريته وهى زبدة حياته والغرض الذى من أجله عاش ومن أجله يكتب الكاتبون عنه. فما تحرك فى حياته حركة إلا كان لعبقريته منها نصيب أوفى نصيب. حتى لكأنه كان لا يتحرك ولا يتنفس ولا يطعم ولا يشعر إلا ليتخذ من ذلك كله مادة حياة ويترجم ما عمل وما علم فى قالب الفن ترجمة البر الأمين، وصفوة القول فى هذه العبقرية أنها كانت عبقرية يونانية لولا الإفراط أو الانهماك، أو أنها كانت عبقرية يونانية مكبرة الجوانب بعض التكبير.

ولسنا نصفها هذا الوصف لأنه يفسر سهل لهذه العبقرية النادرة ولكن لأنه وصف موجز يدل على أجزائها المختلفة بقليل من الكلمات.

فربما كان القول بأن ابن الرومى رجل حساس متوفز الأعصاب ملبى المزاج نشأ فى حضارة زاهية فأجابته وأجابها وأخذت منه وأخذ منها فنبغ على ذلك المثال الفريد لأنه لا بد فى الشعر من مثال فريد - ربما كان هذا أقل فى العجب من تفسير عبقريته بأنها عبقرية يونانية على اعتبار أنها موروثة عن آبائه اليونان . . إذ من هم أباؤه اليونان! لا ندرى أهم من إغريق الجزر أم من إغريق البلاد المعروفة باسم اليونان أم من إغريق آسيا الصغرى التى كانت تدور الحرب فيها وحولها بين المسلمين ودولة الروم. ومن الصعب الذى يحتاج إلى التفسير أن نقول أن هؤلاء الإغريق جميعًا سليقة واحدة وأمة واحدة وعنصر واحد ينحدر منه الرجل وينتقل إلى بيئة أخرى وينجب الأبناء فى بيئته الجديدة فيجتمع فيهم كل ما تفرق من خصائص العبقرية الفنية التى تسمى الآن بالعبقرية اليونانية.

ثم نحن لا نعلم أن الإغريق فى قديم عهدهم كانوا عنصراً واحداً ينتمى

إلى سلالة واحدة، لأن امتزاج الأنساب بينهم وبين الآسيويين ثابت لا شك فيه واقتباسهم من عقائد الآسيويين وفنونهم ولغاتهم ثابت كذلك أقطع ثبوت. ولا يمكن أن نجزن برأى فى وراثة الفطرة الفنية ولا سيما الفطرة فى الشعب كله حتى لو عرفنا الأصل الذى تحدر منه ابن الرومى بين أصول اليونان الكثيرة. فقد كان فى بلاد اليونان نفسها ألوف من أبناء الشعب اليونانى المحاطين بالبيئة اليونانية فى جميع ظواهرها وبواطنها فلم ينبغ منهم فى عصر ابن الرومى شاعر مثله ولا نبغ منهم فى العصور السابقة التى ازدهرت فيها آداتبهم وفنونهم شاعر من طرازه فى جميع خصائصه وملكاته. فلو أننا نقلنا ابن الرومى من الأدب العربى إلى الأدب اليونانى لكان فذاً فى آدبهم كما كان فذاً فى أدبنا، ولم تنقض الحاجة إلى تفسيره بهذه النقلة من أدب لغته إلى أدب أصله، ولو أننا بحثنا عن مزية أصيلة فى الفطرة اليونانية تنتقل مع الدم وتسرى فى خلال التلكوين لأعيانا أولا أن نحصر هذه الفطرة ثم أعيانا بعد ذلك أن نحصر هذه المزية.

فنحن لا نفسر عبقرية الشاعر حين نسميها بالعبقرية اليونانية، ولكننا نصفها فى كلمات موجزة وصفًا يقربها إلى الأذهان ويطبعها بهذا الطابع المعروف عند المطلعين على الآداب. وما من شك فى أن الشعر الذى تحدر من أصل يونانى أيا كان مقره غير الشاعر الذى تحدر من أصل عربى أيا كان مقره. ولكن التفريق بين هذين الشاعرين شىء والقول أن الشاعر لا يحس هذا الإحساس ولا ينظم هذا النظم إلا إذا كان من أبناء اليونان شىء آخر. فحسبنا أننا نعرف ما نريد حين نذكر العبقرية اليونانية ولا نحالو بعد ذلك الخروج إلى تعليل الأصول والتعسف فى تقسيم خصائص الشعوب.

وإنما وصفنا ابن الرومى بهذه الصفة لأنه صاحب عبقرية تعبد الحياة، وتحيا مع الطبيعة، وتلتقط الصور والأشكال، وتشخص المعانى، وتقدم الجمال على الخير أو لا تحب الخير إلا لأنه لون من ألوان الجمال، ثم هى تنظر إلى

الدنيا نزرتها إلى المعرض المنصوب للتـملى والمتعة لا نظرتها إلى الحصن المغلق أو الصومـعة الموحشة أو غـير ذلك من نظرات الأجيـال والأديان، ولا نعرف صفة أجمع لهذه الخصال كلها من صفـة العبقرية اليونانية التى اتسمت بها فى الجملة فنون الإغريق، فقد كان الإغريق بجملتهم كما كان ابن الرومى بمفرده، لولا أن الإغريق كانوا يصيبون من أكل متعة بمقدار وابن الرومى كان لا يعرف فى أمر من الأمور مقداراً أقل من الإفراط والانهماك.

عبادة الحياة

ولننظر أولا إلى حب الحياة الذى كان أول ما اشتهر به اليونان وأول من نستـشفه من فن هذه العـبقرية الحـية فى كل جزء من الأجـزاء وكل حالة من الحالات. فابن الرومى كان من أخلص محبى الحيـاة بين محبيها الكثيرين، أو كان على الأصح الأوضح من مدمنى الحياة بين شرابها غير المدمنين.

وحب الحـياة خليـقـة نادرة وإن ظن أنها أعم شـىء بين الناس وعامـة الأحياء. فليس الحب - سـواء حب حياة أو حب شىء من أشيائهـا - سهلا رخيصًا يطمع فيه كل من يريد. فـمن الناس من يحب الحياة كأنه مسوق إلى حبها، ومنهم من يحبها كأنه مأجور على عمله، ومنهم من يحبها كأنما يحب شيئًا غريبًـا عنه، ومنهم من يحبها كما (يحب) الحيـوان الأعجم ما هو فيه، ومنهم من يحبها حب العاشق الذى يختار معشوقه أو يستوى عنده الحب على القسـر والحب على المشيئـة لأنه يريد ما يقـسر عليه ويأبى أن يفـرض للفراق وجوداً أو يتوقع لهواه تغييراً، فـهو سعيد بأن يحب وأن يسمح له بأن يحب، وهو يحب الحياة لأنه حى لا موت فيه ولا عـمل لكل حاسة فى نفسه إلا أن يحس وتحيا وتستجد إحساسًـا وحياة ولا تشبع من الإحساس والحياة، وهكذا كان ابن الرومى يعبـد الحياة عبادة لا يبـتغى عليها أجـرًا غير مايبتـغيه خلص العابدين. فكان حيًا كله لا مكان فيه للموت إلا الخوف منه والتفكير فيه.

وإنك لتتـابع أبياته الكثـيرة فى هذا الغزل أو فى هذه الـفتنة أو فى هذا

السكر فيخيل إليك أنه شارب قبض على الكأس يود أن يجرعها مرة واحدة من فرط التعطش والخوف عليها لولا أنه يستعذبها ويستطيبها فيترشف منها رشفة بعد رشفة ويعود إليها ينظر ما فرغ منها وما بقى فيها، ويضن ويشتاق ويشعر بمرارة الفقد لفرط شعوره بحلاوة المتعة، فما نقصت من تلك الكأس - الحياة - قطرة إلا أحس بطيبها وأحس بألم فقدها وعرف مقدارها وقاس من الكاس حيزها وعاد يترشف لينسى فيزداد ذكراً على ذكر وخسارة بعد خسارة. وأى ذكر؟ وأى خسارة؟ وأى ألم؟ وأى فجيعة؟

لعمرك ما الحياة لكل حى إذا فقد الشباب سوى عذاب

فقل لبنات دهرى فلتصبنى إذا ولى بأسهمها الصياب

ومن هذه اللهفة بعد اللهفة تعرف كيف بلغ العشرين وكيف بلغ الثلاثين وكيف بلغ الخمسين وكيف بلغ الستين فى قصائد شتى ومناسبات عدة لا موضع هنا لإحصائها ولكنها تدلك إذا راجعتها عليمقالاته بهذه الوديعة وضنه بتسليمها والتفريط فيها وحرصه على ذخيرتها حرص الشحيح الذى يود أن يزيد فى ماله المحسوب وهو يراه ينقص ساعة بعد ساعة ولمحة بعد لمحة.

وهو إذا ذكر الشباب لم تكن صورة الشباب فى ذهنه أنه فترة من الزمن، أو ظاهر من المتعة والعافية، وإنما يذكره وهو ينفذ إلى صميمه وباطنه ولبابه الذى لا يحسب بالأيام ولا معول فيه إلا على جدة الشعور وجلاء الدنيا فى بشاشتها الأولى كأنها الثمرة المقطوفة ولها من الشمس صبغة جديدة ومن الطل مسحة غضة ومن العصر المكنور وليمة تنادى الشهوة وتفتح اللهوة.

فلا يعنيه أن يدوم له الشباب وإنما يعنيه أن تدوم له الدنيا القديمة وهى فى جدة البواكير وفى طرافة المفاجأة التى لا تزال. وإلا فما يغنيه أن يدوم الشباب والدنيا أمامه مذالة المنظر مجرودة اللون مسلوبة من تلك المفاجأة فى كل نظرة وفى كل لقاء:

لو يدوم الشباب مدة عمرى لم تدم لى بشاشة الأوطار

أجل. هذا هو الشباب فى صميمه وباطنه ولبابه. والشباب عنده أيضًا أن يستقبل الحياة لأنها لا تكون جديدة إلا بهذا الاستقبال.

أطالع ما أمامى بابتهاج ولا أقفو المولى باكتئاب

والشباب عندن هو الحياة، لا فرق بين فقده وفقد الحياة إلا أن فاقد الشباب يعلم بموته وفاقد الحياة لا يعلم ولا يأسى على ما فات.

وفقد الشباب الموت يوجد طعمه صراحًا، وطعم الموت بالموت يفقد

والشباب عنده مفقود لا عزاء بعده إلا عزاء الموت القريب.

فما لى عزاء عن شبابى علمته سوى أنى من بعد لا أخلد

وأن مشيبى واعد بلحاقه وإن قال قوم أنه يتوعد

والشباب عنده مبكى لا يوفى البكاء إلا بالدم.

لا تلح من يبكى شبيبته إلا إذا لم يبكها بدم

ومرثى لا ينقطع رثاؤه حتى الممات:

سأثنى بآلاء الشبيبة باسطًا لسانى بها حتى أحين فاقبضا

والخير الأكبر هو أن يحيا الإنسان، والشر الأكبر هو أن يموت، ولا سيئة عنده لهذا الخير العميم ألا تنغيص ذلك الشر العميم.

سواة للحياة وللموت حتم ولبذل الزمان واسترداده

وكل ما فى الحياة من قلة الغبطة أن الأحياء يموتون:

كيف العزاء فى العيش مغتبط ولا اغتباط لأقوام يموتونا

متى تعش قبلى الأحياء يدركنا وأن نمت قبلى الأموات يعفونا

وعلى هذا النحو يقول:

رأيت حـــيــــاة المرء رهنًا بمـوته   وصـحـتـه رهنًا كـذلـك بالسـقم

إذا طاب لى عـيش تنغصت طيـبه   يصدق يقـينى أن سيـذهب كالحلم

ومن كـان فى عـيش يراعى زواله   فذلك فى بؤس وإن كـان فى نعم

فالخلود الخلود! لا شيء دون الخلود يرضيه ويستقر عليه مناه، وإلا فبنو الحيـاة بائسون مـحرومـون لأنهم لا يعيـشون لا لأنهم يعـيشـون كمـا يقول المتشائمون الذين لا يحبون هذا الحب ولا يعبدون هذه العبادة ولا يحسون هذا الإحســاس. ما تكلمنا بالمجـاز حين قلنا أنه يعبـد الحيـاة لأنه - على ما فى شعره مـن هذه الأبيات المفرقة فس شـتى القصائد - قد كـان يعلم ويقول أن للحياة دينًا يحرم ويحلل ويأمر ويطاع ولو عارض أوامر الدين:

شربـت وقد كان الشـباب مـحللا   لى الراح ما كـان الكتاب محـرمًا

وقد طابق التشيب الكتاب فحرمت   على فيك تحريمين إن كنت مسلمًا

وذكر المحرمات فى قصيدة أخرى فقال:

لـم تحـلـل لـمـن أتــاهـا ولـكـن   لم يحل لدونهـا من الشـيب حـام

وأتى الآن دونهــا فــهى اليـو   م حــــرام علـى كل الحـــرام

سـوأتى أن أطعت شـيـبى فيـمـا   لم أطع فــيــه حــاكـم الحكام

وعظ الله والـكـتـاب فـصــمـمـ   ـت وأقـــدمت أيـمـا إقــدام

ونهى الشـيب بعـد ذاك فــأسلـ   ـمت وأحـجـمت أيمـا إحـجـام

فقـد كان يدين فى خوالجـه بهذا الدين ويستـوحى منه شريعـة التحليل والتحريم، وتهم خواطره بالتبتل فـيثنيه عن هذا التبتل الذى لا نسكت دعوته ولا ينقطع رسوله:

ابى لأخى الدنـيـا التـبـتـل أنهـا   لهـا زيفـة فى كل حـين تزيفـهـا

إذا ما جـلاها فى الرياض ربيعـها   يروق عـيـون الناظرين رفـيـفـهـا

obeikandi.com

وأخـرى إذا مـا أينعـت ثمـراتهـا ورقت حواشـيهـا وطاب خريفـها

تراءى لنا فى زخـرفـين كـلاهمـا إذا استوحف الأهواء طال وحـيفها

وقد كان همه الأكـبر أن يحيا لأنه مهيأ النفس للإحـساس بالحياة، ولو كان همـه على ما به من الخـصاصة واللهـفة أن يطلب القـوت وينصرف إلى ذرائع العيش لما كان بالملوم.

وتعلق ابن الرومى بالحـياة أقل شىء غرابة وأقـرب إلى طبيعـة الأمور. نعم إنه كان سـقيم الجسم عسـير الرزق مخيب الآمـال فكان أحرى لذلك أن يبغض الحـياة أو يحبهـا حب المجبر الملول، إلا أن المرء لا يحب الحـياة على مقدار سعادته بها واستجابة آماله فيها، كما أن المرء لا يحب المرأة على مقدار ما ينال من حظوتها ويغنم من إقبالها، بل يحب هذه أو تلك كلما امتلأت بها نفسه واشـتغل بها حسـه واستبكت بها ذكـرياته وامتزجت بها رغـباته، وابن الرومى كـان صـاحب نفس لا توصف إلا بأنهـا أداة مهـيـأة للنظر والسـمع والتلقى عن الوجود من حيثما ألقى إليه بأثر من آثاره وخبر من أخباره دق أو جل وأسعد أو أشقى.

العين لا تنفك من نظر والقلب لا ينفك من وطر

ومن أبهر ما يبهرك فى هذه اليقظة الحسـية حاسة اللون الذاكية المتوهجة التى تطالعك من كل وصف يصف به الوجوه أو الأزهار أو الكؤوس أو الحلى أو الخمر أو غير هذه المناظر التى تلامس الـبصر بألوانها فإنك قل أن ترى فى وصف شاعر من شعراء العالم أجمع نظيراً لهـذه الحاسة الشفافة المتوفزة التى تخـتلج لكل لمحة من لمحـات اللون وكل شعـاع من أشعـة النور وتفطن إلى ألطف ما يبـديه للعين من مـحاسن الامتـزاج والمقابلة وأصفـى ما يجلوه من دقائق المباينة والمشـاكلة. فيصيح صيحة الوهل حـين يرى الوجنة الحمراء إلى جانب الصدغ الأدعج:

يا وجنتيه اللتين من وهج فى صدغيه اللذين من دعج
ما حمرة فيكما أمن خجل؟ أم صبغة الله؟ أم دم المهج؟

ويصيح هذه الصيحة كلما رأى هذا المنظر:

ليت شعرى أسحر عينيك داء الـ ـقلب أم نار خدك الوهاج

ويقول فى مثل هذا المعنى:

تلقى جنى التفاح فى وجناته وترى جنى العناب فى تطريفه
متعت منه مسامعى ومراشفى بنثير لؤلؤة وماء رصيفه

ويصف قينة فلا يكاد يعرض من مناظرها لغير الألوان التى فى وجهها وثيابها:

وقينة أن منحت رؤيتها رضيت مسموعها ومنظرها
شمس من الحسن فى معصفرة ضاهت بلون لها معصفرها
فى وجنات تحمر من خجل كان ورد الربيع حمرها

ويقول فى ساقية

بنت كرم يديرها ذات كرم موقد النحر مثمر الأعناب
حصرم من زبرجد، بين نبع من يواقيت جمرها غير خاب
فوق ليات غادة تترك الحا لى فى كل صبوة وهو صاب
تحمل الكأس والحلى فتبدو فتنة الناظرين والشراب

وفى قينة:

وشرابنا وردية لكؤوسها شرر يطير
حمراء فى يد أحمر الو جنات ملثمة مهير

وفى مثلها:

إذا هى قاست فى الشفوف أضاءها سناها فشفت عن سبيكة سابك

وفى قيان مجتمعات:

لابسات من الشفوف لبوسها كالهواء الرقيق أو كالسراب

ومن الجوهر المضيء سناه شعلا يلتهبن أى التهاب

وليس ألطف من قوله فى وصف الأعناب السود:

سود لهن من الظلماء ألوان

وفى العنب الأبيض:

لم يبق منه وهج الحرور إلا ضياء فى ظروف نور

أما الخمر فربما كان نصيب عينه من نشوتها أجمل لديه وأحب إليه من نصيب السكر عند الشاربين - إذ تراه لا يصف سكرها كما يصف ألوانها وألوان أقداحها بل هو يكاد يحسبها لونًا شائعًا فى الفضاء كما قال:

صفراء تنتحل الزجاجة لونها فتخال البتر حشو أديمها

لطفت فقد كادت تكون مشاعة فى الجو مثل شعاعها ونسيمها

وكما قال فى موضع آخر:

نضا الدهر عن أسآرها جل لونها فغادرها من لونها فى غلائل

ثوت تصطلى شمس الظهائر برهة إلى أن أفادت لون شمس الأصائل

وهكذا يقول فى الرياض:

توقد فيها كلما تلمح الضحى كواكب يذكو نورها حين تشمس

أو فى الشقائق التى هى:

ترف لأبصار كلحن بها ... ليرين كيف عجائب الحكم
شعل تزيدم فى النهار سنى ... وتضىء فى محاولك الظلم
أعجب بها شعلا على فحم ... لم تشتعل فى ذلك الفحم

وهكذا يقول فى كل شىء.

وليست حاسة البصر متفردة بهذه القوة بين حواس ابن الرومى ولاحظها من الذكاء والتفر بأوفر من حظ غيرها، فإن الرجل كان يسمع ويشم ويذوق ويتلمس كما كان يبصر ويتصور، فلا تقصر حاسة من حواسه عن أختها ولا تشكو إحداهن كلالا أو فتوراً فى حصتها من التمييز والشعور، وهو القائل فى وصف صوت:

صوت ندى وأنفاس مساعدة ... كأنما نفس منهن أنفاس
بظل سامعه لدنا مفاصله ... كأنما فترت أوصاله الكاس

وفى وصف مغنية:

معد فى شأو صوتها نفس كا ... ف كأنفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلال والغنج منه ... وبراه الشجا فكاد يبيد
فتراه يموت طوراً ويحيا ... مستلذ بسيطه النشيد
فيه وشى وفيه حلى من الـ ... ـنغم مصوغ يختال فيه القصيد

فكأنه قد بلغ فى تحسس الصوت مرتبة الموسقيين الذين يتمثلون للأنغام أولوانًا وزخارف وأوشية تكاد تنطبع فى صفحة الخيال أو تكاد تدركها العين لشدة بروزها فى قراره الوجدان. وهو لا يدع لك أن تشرح أو تستخلص ما تقرأه من كلامه حتى يقول لك بالعبارة الصريحة أنه يصل بين الرؤية والسماع ويترجم بين الحاستين فينقل إلى لغة العيون ما تضمنته لغة الآذان. وإليك ما يصف به إحدى القيان:

ذات صوت تهزه كيف شاءت مثلما هزت الصبا غصن بان
ينثنى فينفض الطل عنه وفى تثنيه مثل حب الجمان
ذلك الصوت فى المسامع يحكى ذلك الغصن فى العيون الروانى

ثم يستطرد إلى تمييز الأنغام فيقول:

جمهورى بلا جفاء على السمـ ـع مشوب بغنة الغزلان
فيه بم وفيه زير من النـ ـغم وفيه مثالث ومثان
فتراه يجل فى السمع حينا وتراه يدق فى الأحيان
رخمته ورقرقته وضاهى فعلها الأحمران والأسمران
فهو يحكى ترقرق النهى فى الر ـيح لعينى ذى يغلة صديان
بلج السمع مستمراً إلى القلـ ـب بلا آذان ولا استئذان

وإنك إذا قرأت مدائحه الأخريات فى القيان المحسنات وأهاجيه فى شنطف ودبس وأبى سليمان ومن لا يجيد هذه الصناعة من المغنين والمغنيات علمت أنه له أذنًا واعية تهفو إلى السماع الجميل وتنفر من السماع القبيح، وإذا قرأت مبتكراته فى فضائل الأزهار والرياحين ولذة الاستماع بروائحها وتمييزه لمراتبها علمت أنه كان يستروح من جمال مشموماتها مثل ما كان يستروح من جمال مناظرها، وإذا قرأت ما قال فى الموز الذى "يدفعه البلع إلى القلوب" وفى المشمش الذى إذا رأيت بستانه "فأيقن بحق أنه لطبيب" وفى الدجاجة التى يلوح له "سميطة صفراء دينارية" والتى "يكاد أهابها يتفطر". أو قرأت مقطوعاته فى القطائف والفطائر واللوزينج والحلوى التى كان يقرطها ويفتن فى تشبيهها علمت كيف كان النهم بالمناظر والطعوم بابًا عنده للنهم بالطعام، بل حسبك من دليل على شراهة حاسة الطعم عنده وقوة التذاذه بها قوله أنه ما كان ليحفل بالموت أو ليجزع من القبر "لولا فواكه أيلول . . !"

وحاسة اللمس فى هذه الأداة الحسية اليقظى كحواس البصر والسمع والشم والطعم فى الدقة والرفاهة والانتباه. فها هو ذا يصف الريح الشمالية:

وشمال باردة النسيم تشفى حرارات القلوب الهيم

. . . . . .

شاردة فى الليل بالنميم بين نشير الروض والخيشوم

كأنها من جنة النعيم

وها هو ذا يصف الليل فى شهر أيلول:

يا حبذا ليل أيلول إذا بردت فيه مضاجها والليل سجواء

وجمش القر فيه الجلد فائتلفـ ـت من الضجيعين أحشاء فأحشاء

أو ها هو ذا يصف البارد:

ألذ من معتق الرساطون وقهوتى فطر بل وكركين

رجرجة من ماء ليل تشرين كرونق الصيف اليمان المسنون

بات على طود نياف العرنين تتنفحها الريح برس ممنون

فى شطر كوز صنع طب أفنون أخضر فى خضرة جرو اليقين

الست يا محرومها بمغبون

فها هنا تملس معه برد الهواء الذى "يجمش" الجلود والأحشاء. بل ها هنا يخيل إليك أن لبرد الماء فى "شطر الكوز" الأخضر ثقلا راسبًا ينقع الغلة بالرجرجة قبل أن ينقعها بالشراب، وأن الشاعر ما اختار "معتق الرساطون" من أسماء الخمر إلا لأنها كلمة مجسمة أشبه بالرصاص البارد الذى ترى لاستقراره راحة كراحة الظمآن بعد الارتواء. ثم تعيد نظرك فى الأبيات فتعجب ما هى الحاسة التى لم تشترك فى وصف هذه الأبيات؟! أهى حاسة

البصر وهى ترى للماء رونقًا كرونق السيف اليمان المسنون، وترى خضرة الكوز كأنه جرو اليقطين، وترى "شطر" الكوز فإذا هى صنع قادر صناع؟ أم هى حاسة السمع وهى تصغى إلى رجرجة الماء ونفح الريح؟ أم هى حاسة الرى وهو هنا ناقع لا يبقى من الظمأ بقية كى الصدور؟ أم هى حاسة الخيال وهو يرتفع بالكوز إلى رأس الطود النياف العرنين ويشبع القلب بالخمر المجلوبة من قطربل وكركين؟ فأوجز ما يقال فى تصوير ابن الرومى لهذا الكوز أنه قد التهمه حسًا بكل ما فيه من منظور ومسموع ومشروب ومتخيل وملموس.

فهذه أيها القارئ نفس تامة الإدارة تشعر شعورًا شديدًا بالحياة من حيثما واجهتها وتداخل الطبيعة فى كل جزء من أجزائها. فقد عاش صاحبها يومًا يومًا من عمره. وناحية ناحية من وجدانه ولابس الحياة ولابسته.

ودامت الدنيا له غضة كأنها الجارية الناهد

وليس الأمر كله حسًا بالظواهر كذلك الحس الذى لا مذهب له وراء العيون والآذان والأناف، ولا هو بالدقة التى ترهف الحواس إرهافًا فلا يكون قصاراها إلا أن تقابل بين المرئيات والمسموعان أو بين هذه وتلك وبين المشمومات والملبوسات . . كلا! فإن هذه اليقظة الحسية لتصاحبها يقظة فى الشعور الباطنى تسرى به فى كل مسرى وتنفذ به إلى كل منفذ وتترجم العواطف والأخلاق كما تترجم المناظر والألحان، فإذا تتبع "المكر" فى خبايا الفكر فهو القائل فى ذلك قولا لا يسبقه فيه شاعر:

لك مكر يدب فى القوم أخفى من دبيب الغذاء فى الأعضاء
أو دبيب الملال فى مستهامين إلى غاية من البغضاء
أو مسير القضاء فى ظلم الغيـ ـب إلى قاصد له بالتواء

وإذا جال الحزن فى نفسه بدت منه على الكون غشاوة ولاح له كأنما نفخ فى الصور ودمر كل عامر.

وأظلمت الدنيا وباخ ضياؤها نهارًا وشمس الضحو حيرى على القمم

وأبدى اكتئابًا كل شيء عملته وأضعاف ما أبداه من ذاك ما كتم

ثم عرف أنه هو الحزن الدخيل، وليست الدنيا البادية للعيان هى التى يراها بتلك النظرة الشاحبة فقال:

كذاك أرى الأشياء إما حقيقة بدت لى وأما مستيقظ حلم

ولم يحلم اليقظان إلا وقد أتت على لبه دهياء هائلة الفقم

وقد يتأمل المرأة فإذا هو محيط - فى بيت واحد - وبما "الأنوثة" كله، وبما فى المرأة من ضعف وقوة، وبما هنالك من العجب فى أن تكون هذه المخلوقة العجيبة إنسانًا كالرجل وهى الرجل جسدان مختلفان وطبعان متباينان، وأن تكون غريبة عنه وهى قرينة له ما عن مقارنتها محيص. وذلك كله ملحوظ فى البيت الذى يقول فيه:

ومن عجائب ما يمنى الرجال به مستضعف لنا منهن أقران

ولا عجيبة هنا إلا العجيبة التى يحسها منم أحس سر الأنوثة وسر الرجولة وأحاط بالتوفيق الغريب بين هذين الإنسانين حيث يفترقان وحيث يلتقيان، واستوعب لغز "الجنس" ببديهة واسعة لم يحجبها عن ذلك اللغز أن الجنسين أشيع ما يرى فى عالم الإنسان والحيوان.

وأما وقد ذكرنا المرأة ولغز الجنس المنوط بها، فقد يكون من الواجب أن نعرف مقدار ما شغلته من هذه النفس وحركته من هذا الإحساس، فإذا كان ابن الرومى عابدًا للحياة، فالمرأة ولا ريب كاهنة هذا المعبد التى تتم على يديها مراسم العبادة، ومحورها الذى تلتف حوله الشعائر والقرابين، وإذا كان ابن الرومى نفسًا تيقظت فيها أداة الحس والشعور ففى المرأة ولا ريب تلتقى أشد مغريات الحس وأعمق بواعث الشعور. ولابد من شأن لهذه "المخلوقة" فى حياة هذا الشاعر. فما هو هذا الشأن؟ وما حقيقته؟ وما مداه؟ وهل هو شأن

(المرأة) أو هو شأن (أمرأة) خاصة أو أكثر من امرأة خاصة؟ وهل عشق؟ وهل أحب؟ وهل عرف ما هو الحب الذى نعنى به شيئًا أكثر من العشق وأكثر من الغرام؟؟

فأما هذا الشأن فقد كان ولا يعقل إلا أن يكون، وما فرغ ابن الرومى قط من شأن النساء ولا كره الشيخوخة إلا لأنها تصده عن المرأة أو تصد المرأة عنه، فلأجلها قبل كل شىء كان يخاف غائلة السن ولأجلها قبل كل شىء كان يتمنى خلود الشباب:

أخشى كسادى على النساء إذا أسنـ ـنت والسن جمة الخبل
وإننى من كسادهن على سـ ـنى لأولى بالخوف والوجل

ولأجلها كذلك تمنى أن تنعكس أيام العمر فيتقدم فيه الهرم ويتأخر فيه الشباب:

فالعيش طمعان عند ذائقه مر التوالى ستعذب الأول
ومن عسل تارة ومن صبر لهفى لتأخر عقبة العسل
لو أنها أخرت لطاب بها العيـ ـش وأن جاوزت شفا الأجل

وفى وسعك أن تقول أنه عرف "العشق" الذى لا يعرفه إلا من نشبت علائقه بامرأة واحدة دون سائر النساء، فوصف ما وجده من هذا العشق فى غير موضع وقال من ذلك:

قد كنت أبكى لأصحاب الهوى زمنًا فهل لى الآن من باك فيبكينى
أهكذا يجد العشاق كلهم؟ يا رحمتا للمحبين المساكين!

وقال:

الحب داء عياء لا دواء له تضل فيه الأطباء النحارير
قد كنت أحسب أن العاشقين غلوا فى وصفه فإذا فى القوم تقصير

سقيًا لأيام لم أخبره تجربة إلا بما وصفت عنه الأخابير

بل جرب الغيرة فقال فى تهوينها على العاشق ما لا يقوله إلا غيور:

إذا خلة خانتك بالغيب عهدها فلا تجعلن الحزن ضربة لازب

وهب أنها الدنيا التى أنت موقن بفرقتها إذا أنت فى شأن لاعب

فهو قد عشق وغار وكابد لوعة الرغبة التى يحصرها العشق فى إنسانة واحدة بين سائر النساء وفارق وناجى وذكر وقال من ذلك فى معشوقة فارقها على أمل اللقاء:

أعلى العهد أنت أم حلت عنه جعل الله قبل ذاك مماتى

لست أنسى امتناع صبرك للتود يع والبين مؤذن بشتات

إلا أن هذا كله عشق وليس فيه حب. وقد يكفى الإحساس والعاطفة لإضرام العشق وإغرام المرء بامرأة يشتهيها ويغار عليها ويشعر نحوها بذلك الشعور الفطرى الذى ركب فى عامة الرجال وعامة النساء. أما الحب الذى نعينه فلا يكفى فيه الإحساس والعاطفة ولابد فيه من "الروحانية" أو الزهد والتضحية ونكران الحياة ويقترن ذلك بالتصوف والارتفاع بالمرأة إلى ما فوق مرتبتها فى الطبيعة وفوق حظها من محاسن الأجسام. إذ الطبيعة لا تعرف فى المرأة إلا انها أنثى وكذلك العاشق، أما الحب فإنه قادر على أن يفيض من روحانيته نورًا على ما يحب وأن يحفها بهالة علوية قد يهابها وقد يخشع لها فى بعض المواقف خشوع المتنسكين. ولم يكن لابن الرومى نصيب من هذه الروحانية ولا منم ذلك النور، فما كانت المراة فى حسه أو عاطفته إلا أنثى طبيعية ومخلوقًا جميلا فيه متعة للأعين ومسرة للقلوب، وتساؤه كلهن نساء المتعة والمسرة على نسق واحد يلخصه مثل هذا البيت:

حوراء فى وطف قنواء فى ذلف لفاء فى هيف عجزاء فى قبب

وهو فى هذا أيضًا وفى "للعبقرية اليونانية" وللصورة التى رسمها اليونان للجمال "فينوس". فقد كان اليونان طبيعيين فى الجمال وطبيعيين فى العشق ولم يكونوا روحانيين فى شعر ولا فلسفة ولا تصوير، وخلاصة الحب عندهم أنه نسخة من حب "خلوى ودفنيس" فى غاية حفلت بالألوف مننسخ هذا الحب بين أزواج الطير والحيوان، فإذا تنزه فهو حب عصفور لعصفورة أو ظبى لظبية أو حيوان جميل لحيوانة جميلة، يخلو من الكثافة ويزدان بالخفة والرشاقة، ولكنه لا يخلو من "الجسدية" ولا من "الطبيعة" ولا يفارق الأرض ليصعد إلى سماء "الروحانية" والنور. وإذا تنزه بعد ذلك فهو صداقة حامية يشترك فيها الفكر والذوق والغريزة، ولا يفسح فيها مجال كبير للنزاهة والتقديس.

حب الطبيعة

وننتقل من ذاك إلى الخاصة الأخرى من خواص الطبيعة اليونانية وهى حب الطبيعة.

فقد وصف الطبيعة شعراء كثيرون ولم يمنحها الحياة إلا قليلون! أما الذين منحوها حياة نحبها وتحبنا ونعطف عليها وتعطف علينا ونناجيها وتناجينا فأقل من هؤلاء القليلين . .

وذاك أن الشاعر قد يؤخذ بأحمرها وأبيضها وأصفرها بذلك أن يمدح شيئًا قد يجد مثله فى ألوان الحلى وأصباغ الطنافس ونقوس الجدران، أو نحن نخطو وراء ذلك خطوة فنقول أنه لا يعدو بذلك أن ينظر إلى دمية فاتنة يروقه منها وجه مليح وقوام ممشوق وحسن مفاض على الجوارح والأوصال، ولكنه لا يتطلع مها إلى عطف ولا يفتش فيها عن طوية.

وقد يستريح الشاعر إلى الطبيعة لأنها ظل ظليل، ومهاد وثير، وهواء بليل، وراحة من عناء البيت وضجة المدينة، فلا يعدو بذلك أن يستريح إليها

كما تستريح كل بنية حيـة إلى الماء والظل والهواء - كذلك تهجع السائمة فى المروج، وكذلك تهتف الضفدع فى الليلة القمراء . .

وقد يمنحها الشاعر حيـاة من عنده أو من عند الخرافات والأساطير فإذا هى حياة بغـيضـة لا تصلح للتعـاطف والمناجاة ولا يصـدر عنها إلا الـفزع والإحجام ولا تقوم بينه وبينها إلا الحواجز والعداوات.

أما الطبيعة التى تحب وتاجى ويتم التـعاطف بين الشاعر وبينها عن ثروة غزيرة من الشعر والشعور فهى طبيـعة الحور الخافقات فى الهواء، والعرائس السـابحات بين الأمـواج، والعذارى الراقـصات فى عـيد الربيع، والجنـيات الهامسات فى رفرفة النسيم ورقرقـة الغدير وحنين الصدى وحفيف الأغصان، أو إن شئت فقل أنها هـى الطبيعة العامرة بما فى البـروق والرعود والسماوات والأعـماق من بطولة وعظمـة، ونضال جـيـاش بالغضب الظافـر، والسطوة المجيدة، والخطر المثير، والشجاعة التى تقدم ولا تحجم وترجو ولا تخاف، أو إن شئت فقل أنهـا هى الطبيعة التى تبث الإغراء، فى كل شىء حـتى ليحذر الملاح لجة البحار مـخافة أن تستهويه بنات الماء من وراء زرقـة الأمواج، فيثب إلى أحضانها وكأنما يثب إلى أحضان عروس طال بها عهد الغياب.

فعلى هذا النحـو تتجلى الطبيعـة للعبقرية التى تحـبها وتمنحهـا الحياة. فليست هى دمـية ولا حليـة، وليست هى مروحـة شاملة ونفس تخف إليـها وتأنس بها و"ذات" تسـاجلها العطف وتجاذبها المودة، ثم هى عـمار لا خواء فيه وأسرة لا تبرح منها فى حضرة قريب يناجيك وتناجيه ويعاطيك الإخلاص وتعاطيه.

وقـد كان ابن الرومى يـحب الطبيـعـة على هذا النحـو ويستـريح من محـاسنها نفسًا تسـبى الناظر إليها وتتـبرج له "تبرج الأنثى تصـدت للذكر" ويرى وراء هذه الزينة التى تبدو على وجهها عاطفة من عواطف العشق تتعلق بها العفة والشهوة تعلقها بالعاطفة الإنسانية الشاعرة:

فهى فى زينة البغى ولكن هى فى عفة الحصان الرزان

ولا يقول هذا القول على سبيل الاستعارة اللفظية ولكنه يقوله ويصف الطبيعة الوصف الذى يقتضيه ذلك الشعور ويليه ذلك التصور، فيشف وصفه لها عن شغف الحى بالحى وشوق الصاحب إلى الصاحب، وتسمع من تشبيبه بها رنة طرب أو شجو لا تخرج إلا من نفس مفعمة بأصداء الطبيعة قد نفذت إلى طويتها وشاركتها فيما تتخيله لها من حزن وسرور. فهو يحيا مع الشمس الغاربة حين تضع على الأرض "خدا أضرع" من دهشة الفراق، وهو يحيا مع النوار حين تخضل بالدمع عيونه وتهبط مع الليل شجونه، وهو يحيا مع الذباب المغرد والطير الساجع فى ساعة الغروب التى يمتزج فيها الحنان الذائب بالشوق الخفيض، وهو ينتظم ذلك كله فى أنشودة واحدة لم تدع مزيداً لفن اللون والحركة ولا مزيداً لوحى الخيال والسليقة:

إذا رنقت شمس الأصيل ونفضت على الأفق الغربى ورسا مذعذها
وودعت الدنيا لتقضى نحبها وشول باقى عمرها فشتشعا
ولاحظت النوار وهى مريضة وقد وضعت حدًا إلى الأرض أضرعا
كما لاحظت عواده عين مدنف توجع من أوصابه ما توجعا
وظلت عيون النور تخضل بالندى كما أغرورقت عين الشجى لتدمعا
يراعينها صوراً إليها روانيًا ويلحظن ألحاظًا من الشجو خشعا
وبين أغضاء العراق عليهما كأنهما خلا صفاء تودعا
وقد ضربت فى خضرة الروض صفرة من الشمس فاخضر اخضرارا مشعشعا
وأذكى نسيم الروض ريعان ظله وغنى مغنى الطير فيه فسجعا
وغرد ربعى الذباب خلاله كما حثحث النشوان صنجًا مشرعا

وهو يعرف الربيع حياة تتحرك فى الوحش والطير كما يعرفه زخرفًا تتحلى به الأرض والسماء. لأنه وليمة الحياة للأحياء.

تجد الوحوش به كفايتها ... والطير فيه عتيدة الطعم
فظباؤه تضحى بمنتطح ... وحمامة يضحى بمختضم
أن الربيع لكالشباب وأن الصيـ ... ـف يكسعه لكالهرم

وهو ينتشى مع الطيور والأغصان إذا بعثت الشمال بتحيتها و:

هبت سحيراً فناجى الغصن صاحبه ... مسوسًا وتنادى الطير إعلانا
ورق تغنى على خضر مهدلة ... تسمو بها وتشم الأرض أحيانا
تخال طائرها نشوان من طرب ... والغصن من هزة عطفيه نشوانا

وهو يستمع إلى الروضة فى بكائها وشدوها إذ هى:

يتداعى بها حمائم شتى ... كالبواكى وكالقيان الشوادى
من مثان ممتعات قران ... وفراد مفجعات وحاد
تتغنى القران منهن فى الأ ... يك وتبكى الفراد شجو الفراد

وهو يفهم الشعر الذى لا ينشده صاحبه للأجر والصنعة:

لكن كما راقت القمرى جنه ... فظل يتبع تغريداً بتغريد

وهو يحسن الإصغاء إلى سر الحياة الكامنة فى هذه الأرض وينصت إلى ما يبوح به الربيع فى نجواها إذا:

لم يبق للأرض من سر تكاتمه ... إلا وقد أظهرته بعد إخفاء
أبدت طرائف وشى من زواهرها ... حمرا وصفرا وكل نبت غبراء

وهو يشتهى جمال الطبيعة من ... كل جارحة فى نفسه إذا بدت للعين

برياض تخايل الأرض فيها   خيلاء الفتاة فى الأبراد
منظر معجب، تحية ألف   ريحها ريح طيب الأولاد

وقد بلغ من قوة هذا الإحساس فيه أن تجاوز حيز البديهة إلى حيز التفكير، كأنه التفت إلى نفسه فأدرك من طول المراقبة وتواتر الإحساس المتشابه علة أنسه بالطبيعة، وعلم أنه أنس مستمد مما يفيضه عليها من دلائل الحياة، فقال فى أبيات يصف بها الأغصان:

تلاعبها أيدى الرياح إذا جرت   فتسمو، وتحنو تارة فتنكس
إذا ما أعارتها الصبا حركاتها   أفادت بها أنس الحياة فتؤنس

ولما شغف بالشباب ذلك الشغف المتوهج لم ينس معه الشغف بالطبيعة ولم يفرق بين ربيعه وربيعها وبين ثمراته وثمراتها: بل خلع من شبابه عليها وخلع من شبابها عليه ومزج بينهما مزجًا لا تخاله يكون إلا فى مهجة واحدة وجسد واحد. فإذا تذكر الشباب فأسمع ما هذا الذى يذكره بالشباب:

يذكرنى الشباب صدى طويل   إلى برد الثنايا والرضاب
وشح الغانيات عليه لا   عن ابن شيبة جون الغراب
يذكرنى الشباب جنان عدن   على جنبات أنهار عذاب
تفىء ظلها نفحات ريح   تهز متون أغصان رطاب
إذا ماست ذوائبها تداعت   بواكى الطير فيها بانتحاب
يذكرنى الشباب رياض حزن   ترنم بينها رزق الذباب
إذا شمس الأصائل عارضتها   وقد كربت توارى بالحجاب
وألقت جنح مغربها شعاعا   مريضًا مثل إلحاظ الكعاب
يذكرنى الشباب سراة نهى   نمير الماء مطرد الحباب

obeikandl.com

قـــرته مـــزنـة بكر وأضـــحى ترقـرقـه الصبـــا مـثل السـراب
على حـصبـــاء فى أرض هجـان كـــأن ترابـهـــا ذفـــر الملاب
له حـــبك إذا أطـرت عليـــه قـرأت بهـــا سطوراً فى كـتـاب
تذكـرنى الـشبـاب صبـــا بليل رسـيـس المس لاغـبـه الـركـاب
أنت من بعـدها ما أنـسجت مليـا على زهـر الربا كل انـسـحـاب
وقـد عـبقت بـهـا ريا الخـزامى كـــريا المسك ضـــوع بانتـهـــاب
يذكـرنى الشـبـاب ومـيض برق وسـجع حـــمـامـة وحـنين ناب
فـيـا أسـفـا ويا جـزعـــا عليـه ويا حـــزنًا إلـى يوم الحـــســاب
أأفـجـه بالـشبـاب ولا أعـزى؟ لقـد غـفل المـعـزى من مـصـابى
تفـــرقنا على كـــره جـمـيـعًـــا ولم يك عن قلى طول اصطحـاب
وكـــانت أيـكتى ليـد اجـــتناء فـعـــادت بعـــده ليـد احـــتطاب
أيا برد الـشبـــاب لكنـت عندى من الحـــسنات والقـسم الـرغـاب
بلـيت علـى لازمـــان وكـل برد فـــبين بلى وبـين يد اسـتـــلاب
وعـــــز علـى أن تبـلى وأبـقى ولكـن الحـــوادث لا تحـــابى
لبـســـتك برهة لبـس ابتـذال على علمى بفـضلك فى الثـيـاب
ولو ملـكت صـــونك فـــاعلـمنه لصنتك فـى الحـرير من العـتـاب

وهذا حنين إلى الطبيعة وشبابهـا وحنين إلى العمر وسبابه لا تدرى أين تبتدئ أحـدهما وأين ينتهى الآخر. فهـما حنين واحد وشباب واحد وفـاكهة واحدة وروضة واحدة. وإنك لتذوق الفاكهة فتذوق فيها طعم الشفاه والخدود وتحد فيها مس الضـفائر والنهود وتجمع فيها بين وليمة الحب ووليـمة البستان بعد أن تسمعه يقول:

متع الظبى من جنى غصنك اللد ... ن يمتعك منه قبل انخضاده
من عناقيده وتفاحه الغض ... ورمانه ومن فرصاده

أو بعد ان تسمعه يقول:

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان ... فيهن نوعان: تفاح ورمان
وفوق ذينك أعناب مهدلة ... سود لهن من الظلماء ألوان
وتحت هاتيك عنك تلوح به ... أطرافهن قلوب القوم قنوان
غصون بان عليهان الدهر فاكهة ... وما الفواكه مما يحمل البان
ونرجس بات سارى الطل يضربه ... وأقحوان منير النور ربان
الفن من كل شيء طيب حسن ... فهن فاكهة شتى وريحان

فلا افتراق عنده بين الطبيعة والشعور، يكاد لا ينظر إلى الحسان ألا تذكر الروضة والبستان، أو يكاد لا ينظر إلى الروضة والبستان إلا بنظرة تثير الرغبة وتوقظ الأشجان . .

ولو كان للطبيعة فى بلاد العراق ظواهر أخرى غير هذه الظواهر التى توزع وصفها فى قصائده ومقطوعاته لقرأت له فى تلك الظواهر الأخرى وصفًا على هذا الأسلوب يحييها ويناجيها ويلهمها القول والعمل ويزودها بالسير والأحاديث، كما ترى فى الأساطير المروية عن بلاد الرعود والبراكين والمغاور والآجام. لأننا لا نحسب هذه القريحة قادرة على أن تتخيل شيئًا من الأشياء بغير حياة، ولا على أن تفصل بين عالم الطبيعة وعالم الحياة فى أى البلاد.

التشخيص والتصوير

والقريحة المطبوعة على إعطاء الحياة مطبوعة كذلك على إعطاء الشخوص، أو على ملكة التشخيص.

ولكننا نحب أن نستثنى هنا ذلك التشخيص الذى تلجئ إليه ضرورة اللغة وتسهيل التعبير مع علم المتكلم بما فى كلامه من المجاز والمفارقة. فقد يتكلم الشاعر أو غير الشاعر عن الشمس بضمير المؤنث، وعن القمر بضمير المذكر، وقد يسند إليهما فعال الأحياء العاقلة وغير العاقلة، ولكنه بعد تعبير لفظى ليس وراءه تصور وليس وراء التصور - إن كان - أثر من الشعور، ولا سيما الشعور المتبادل بين طرفين متعاطفين.

وإنما المقصود بالتشخيص تلك الملكة الخالقة التى تستمد قدرتها من سعة الشعور حينًا أو من دقة الشعور حينًا آخر، فالشعور الواسع هو الذى يستوعب كل ما فى الأرضين والسموات من الأجسام والمعانى، فإذا هى حية كلها لأنها جزء من تلك الحياة المستوعبة الشاملة، والشعور الدقيق هو الذى يتأثر بكل مؤثر، ويهتز لكل هامسة ولامسة فيستبعد جد الاستبعاد أن تؤثر فيه الأشياء ذلك التأثير وتوقظه تلك اليقظة وهى هامدة جامدة صفر من العاطفة خلو من الإرادة، وهذا الشعور الدقيق هو شعور ابن الرومى بكل ما حوله، وسبب ما عنده من قدرة الأحياء وقدرة التشخيص: قدرة التشخيص التى هى ملكة مقصودة تكون عند أناس ولا تكون عند آخرين، وليست قدرة التشخيص التى هى حيلة لفظية تلجئنا إليها لوازم التعبير ويوحيها إلينا تداعى الفكر وتسلل الخواطر.

خذ مثلا للمعانى "التشخيصية" التى يأتى بها اللفظ والمعانى التشخيصية التى أتى بها الشعور من أبيات ابن الرومى فى مشهد الشمس ساعة الغروب.

فقد ينظر بعض الشعراء إلى الشمس فى هذا المشهد فيجعلها حسناء مفارقة، وما دامت حسناء مفارقة فهى معشوقة أو عاشقة، وما دامت معشوقة أو عاشقة فهناك قصة غرام تدور على هذا المعنى إلى حيث ينتهى بها المطاف، وكل هذا لأن الشمس مؤنثة فى اللغة العربية وحسناء فى تشبيهات الشعراء!

فهى قصة مولدة من لفظ عرضى قد يكون لها نصيب من الشعور، وقد لا يكون لها أقل نصيب، أما الشىء الذى لا يمكن أن يخلقه اللفظ ولا التشبيهات ولا تسلسل الخوطر فهو الشعور العميق بوحشة الغروب وما ينكعس من ذلك الشعور العميق على الشمس من ترنيق وضراعة وانكسار ونظر بائس كنظر المريض إلى العواد ووجوم شائع بينها وبين عيون النور التى تغرورق على الأغصان لتدمع وتلحظ ألحاظًا خشعا من الشجو والإغضاء. فلابد إذن من شعور يسبق التشخيص ويلقى عليه ظله ويبث فيه من حياته، وأيا كان لفظ المشس من التأنيث أو التذكير وأيا كان موقعها من تشبيهات الشعراء، فإن هذا الشعور لا يتغير ولا يضعف ولا يزول.

هذا الشعور هو الذى يسبق كل تشخيص لابن الرومى أو كل "صورة مشخصة" فى شعره، سواء تلكم عن بلد أو يوم أو خليقة أو فترة من العمر أو معنى محسوس أو غير محسوس.

فأنت تستخرج من بغداد "صورة مشخصة" حين يقول عنها:

بلد صحب به التشبيبة والصبا ... ولبست ثوب العمر وهو جديد

فإذا تمثل فى الضمير رايته ... وعليه أغصان الشباب تميد

وأنت ترى للمهرجان والنيروز "شخصين" يشبان ويشيبان ويدينان بالأديان ويحدوهما الشوق وتلوح عليهما الهيبة حين يلوحان لك فى قوله:

شبب المهرجان لهوك فيه ... فغدًا من غطارف الشبان

وكذاك النيروز رد عليه ... بك شرخ الشباب ذى الريعان

ولذكرك ذا وذاك جميعًا ... سنن الملك فى بنى ساسان

عمرًا برهة على دين كسرى ... وهما الآن بعده مسلمان

. . . . . .

فعلى منظريهما هيبة العـ ـز ونور الإسلام والإيمان
وأحباك حب مولى شكور فهما وامقان، بل عاشقان
كل يوم وليلة فرط شوق ونزاع إليك يطلعان
فبهذا وذاك حتى يجيئا غلة فوق غلة الظمآن
لو أصابا إلى الغلاط سبيلا غالطا الحاسبين فى الحسبان
أو يخلى عنان ذاك وهذا سبقا موقتيهما فى الزمان
ولودا إذا هما بك حلا وعزيز عليهما أن يكونا
عنك لولا الإزعاج يرتحلان لو أطافا هناك للدهر قسرا
حزنًا سائقيه أى حران

ولهنوات النفوس "شخوص" عنده يخاطبها وتخاطبه ويعتب عليها وتعتب عليه وتسمع بينه وبينها هذا الحوار:

ليتنى ما هتكت عنكن سترًا فشويتن تحت ذاك الغطاء
قلن: لولا انكشافنا ما تجلت عنك ظلماء شبهة قتماء
قلت: أعجب بكن من كاسفات كاشفات غواشى الظلماء
قد أفدتنى مع الخبر بالصبا حب أن رب كاسف مستضاءء
قلن: أعجب بمهتد يتمنى أنه لم يزل على عمياء

إلى آخر ذلك الحوار:

والشباب روح أو ملك يعيش كما يعيش الرجل وزميله من ألحان فى بعض الأساطير

أخى والفى وتربى كان مولدنا معًا وربتنى الأيام حيث ربا

والود كائن حى يعاجله القتل أو يترك إلى الهرم فيموت:

أمت وديك عبطة فمه دعه على رسله يمت هرما

والعوسج شرير "ملعون" يهجى ويسخر منه ويقال فيه:

عذرنا النخل فى إبداء شوك يذود به الأنامل عن جناه

فما للعوسج الملعون أيدى لنا شوكًا بلا ثمر نراه

تراه ظن فيه جنى كريما فأظهر عدة تحمى ثمر نراه؟!

فلا يتسلحن لدفع كف، كفاه لؤم مجناه كفاه!

وإذا كانت هذه قدرة ابن الرومى على خلق الأشكال للمعانى المجردة أو خلق الرموز لبعض الأشكال المحسوسة فإن القدرة التى سبق بها الشعراء فى الأمم كافة بغير شك ولا تردد هى قدرته البالغة على نقل الأشكال الموجودة كما تقطع فى الحس والشعور والخيال. أو هى قدرته على التصوير المطبوع، لأن هذا فى الحقيقة هو فن التصوير كما يتاح لأنبغ نوابغ المصورين. فلست أعرف فيمن قرأت لهم من مشارقة ومغاربة أو يونان أقدمين وأوربيين محدثين شاعرًا واحدًا له من الملكة المطبوعة فى التصوير مثل ما كان لابن الرومى فى كل شعر قاله مشبهًا أو حاكيًا على قصد منه أو على غير قصد، لأنه مصور بالفطرة المهيأة لهذه الصناعة فلا ينظر ولا يلتفت إلا تنبهت فيه الملكة الحاضرة أبدًا وأخذت فى العمل موفقة مجيدة سواء ظهر أو سها عنها كما قد يسهو المصور وهو عامل فى بعض الأحايين.

إنما التصوير لون وشكل ومعنى وحركة، وقد تكون الحركة أصعب ما فيه لأن تمثيلها يتوقف على ملكة الناظر ولا يتوقف على ما يراه بعينه ويدركه بظاهر حسه. ولكن تمثيل هذه الحركة المستصعبة كان أسهل شىء على ابن الرومى وأطوعه وأجراه مع ما يريد من جد أو هزل وحزن أو سرور، وقد مر

بك وصفه لمشيته التى "يغربل فيها" وللأحدب الذى شبهه بالمصفوع وهو يتجمع ويتهيأ للصفع ويخشاه! فأضف إليه هنا وصفه لحركة الكتان فى حقله:

وجلس من الكتان أخضر ناعم توسنه دانى الرباب مطير
إذا درجت فيه الشمال تتابعت ذوائبه حتى يقال غدير

ووصفه لحركة الرقاق فى يد الصانع:

ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

ووصفه للقمر فى سريانه:

وأسفر القمر السارى فصفحته ريا لها من صفاء الجو لالاء

ووصفه لحركة الرى فى النبات:

ويحور الخريف وهو ربيع وتسور المياه فى العيدان

ووصفه للحركة البطيئة فى سير السحائب:

سحائب قست بالبلاد فألقيت غطاء على أغوارها ونجودها
حدتها النعامى مثقلات، فأقبلت تهادى، رويدًا، سيرها كركودها

فإنك تقرأ هذه الأبيات وأمثالها مما سبق أو لم يسبق فى هذا الكتاب فيروعك منها - أول ما يروغ - صدق تمثيلها للحركة فى الجملة والتفصيل. فليس أصدق من وصف ذوائب الكتان بالغدير وهى تتلاحق مع الريح، ثم يتمم تصوير الحركة هنا تصوير اللون الأخضر والملمس الناعم والغيم الذى يسرى على جلس الكتان مع الليل فى وقت الوسن ويسف بحواشيه المطيرة إلى الأرض البليل. فالصورة كاملة لا تنقص منها سمة من مسات المكان والزمان والحركة ولا حظ من حظوظ العين واللمس والخيال، ومثلها صورة الرقاق وهى تكبر فى لمح البصر كما "تنداح" الدوائر فى صفحة الماء، ومثلها

صورة الليلة القمراء وهى كاملة متحركة من بداية الأسفار إلى السريان إلى الصفحة الريا التى تطالعك بالامتلاء والنداوة إلى الصفاء المحيط بكل هذا فاللألاء المشرق على ذلك الصفاء. ليس فى البيت كلمة واحدة إلا لها مكانها من الصورة ونصيبها من التلوين والتمثيل والتبيين، ومثل ذلك المياه التى تسور فى العيدان كأن لها وجيبًا أو دبيبًا يتبعه الناظر بعينه ويصغى غليه بأذنه، والسحائب التى لا تفرق بين حركتها وركودها لأنها أطبقت على أغوار البلاد ونجودها، وهات ما شئت من صور له فى وصف الإنسان والحيوان والنبات والجماد فإنك لتجدن فيها كلها مثل هذا الصدق ومثل هذه الحركة ومثل هذه الحياة. وقد يكون قولنا هذا من تحصيل الحاصل بعد ما سلف من بيان إحساسه باللون ويقظته لكل ما يراه أو يسمعه او يلمسه أو يدركه من ظواهر الأجسام وبواطن العواطف والأخلاق، ولكنه تحصيل حاصل غير مألوف ولا مستغن عن بعض الإبانة وبعض التفصيل.

ولو كان ابن الرومى مصورًا لما استغرب منه هذا الولع بالألوان والظلال والأشكال والحركات. لأنه كان لا يستطيع إذن أن يشرع فى عمله قبل أن يتلفت إلى عناصر الصورة المحسوسة ويجيلها فى روعة ويهئها للظهور على قرطاسه. أما الشاعر فلا ضرورة فى نظم الشعر تقسره على أن يلتفت هذا الالتفات الدقيق إلى كل لمحة من لمحات اللون والظل وكل صغيرة من صغائر الشكل والحركة. فإذا التفت إلى ذلك فى عامة شعره بغير ضرورة قاسرة ولا طريقة مسبوقة فإنما يلتفت إليه لأنه مطبوع على التصوير ينظر إلى ما حوله فينطبع ما يراه فى حسه وإن دق وخفى - كما ينطبع النور البعيد الضئيل فى مصور الفلكى المحكم التركيب:

وبودنا أن نثبت الآن قصيدة "المهرجان" النونية برمتها لأنها نموذج واف لشعر ابن الرومى فى هذا الباب، ولكنا نجتزئ منها بما يأتى وفيه الدلالة الكافية على هذه الملكة النادرة. قال:

يمن الـلـه طلعـــة المهـــرجـــان ... كل يمن علـى الأمـيـر الهـجـان

....

مــهــرجـــان كـــأنما صـــورته ... كـيـف شاءت مـخـيرات الأمـانى

....

وأديل الســـرور واللـهـو فـــيـــه ... من جـمـيع الـهـمـوم والأحـزان

ليـست فـيـه حـفل زينتـهـا الدنـ ... ـيـــا وزاقـت فى منظـر فـتـــان

وأذالت من وشـــيــــهـــا كل برد ... كـان قـدمًا تصـونه فى الصـوان

وتبـــدت مـثل الـهـدى تهـــادى ... رادع الحـــبـــيب عـــاطل الأبدان

فــهـى فى زينة الـبــغى ولـكن ... هى فى عــفـة الحـصـــان الرزان

كـــادت الأرض يوم ذلك تفـــشى ... ســـر بـطنانهـــا إلى الظـهـــران

....

وتعـــود الرياض مـــقـــتـبـــلات ... ناعـمـات الـشكيـر[١] والافـتـان

....

زخـرفت يوم نعـــمـه حـجـرات ... جــد مـوطوءة من الضـــيـفـــان

....

حـجـــرات مـيـــمـــمـــات بناها ... من فـصـول المعـروف إكـرام بان

لم يكن يـقـتنى المســاكن حـــتى ... يتـــقن المجـــد أيـمـــا إتقـــان

فـأذيـلت فـيـــهـــا تهـــاويل رقم ... قـــــائمـــــات بـزينـة المزدان

ثم قـــام الكمـــاة صـفـن من كـ ... ـل عظـيم فى قـومـه مـرزبان

كلهـم مطرق إلى الأرض مــغض ... وعلى ســيــفــه هـنالك حـــان

(١) الشكيرك النبت الصغير.

obeikandl.com

وتجلى على السرير جبين ... ذو شعاع يحول دون العيان

يمكن العين لمحة ثم ينهى ... طرفها عن إدامه اللحظان

فله منه حاجب قد حماه ... كل عين ترومه بامتهان

فاستوى فوق عرشه بوقار ... وبحلم من الحلوم الرزان

ثم قام الممجدون مثولا ... ضاربين الصدور بالأذقان

ليس من كبرياء فيه ولكن ... كل وجه لذلك الوجه عان

فنثوا سؤدد الأمير وعدوا ... فيه آلاءه بكل لسان

حين لم يجشموا التزيد لا بل ... ما تعدوا ما حصل الكاتبان

. . . . . .

فقضوا من مقالهم ما قضوه ... ثم أبو بالرقد والحملان

بعد ما ارتعوا الأنامل فيما ... لا تعدوا شهوة الشهوان

من خوان كأنه قطع الرو ... ض وإن كان فى مثال خوان

فوقه الطير فى الصحاف وحاشى ... ذلك الطير من جفاء الجفان

. . . . . .

ثم سام الأمير سوم الملاهى ... وخلا بالمدام والندمان

. . . . . .

وقيان كأنها أمهات ... عاطفات على بنيها حوان

مطفلات وما حملن جنينا ... مرضعات ولسن ذات لبان

ملقمات أطفالهن ذيًا ... ناهدات كأحسن الرمان

مفعمات كأنها حافلات ... وهى صفر من درة الألبان

كل طفل يـدعى بأسـمــاء شتى ... بيـن عــود ومـزهر وكـران
أمــه دهرهـا تتـرجم عـنه ... وهو بادى الغنـى عن التـرجمـان

. . . .

أوتى الحكم والـبيـان صبـيـا ... مـثل عيـسى بن مـريم ذى الحنان

. . . .

لو تـسلـى به حـديثـه ... لشـفى داء صـدرهـا الحـران
عـجـبـا منه كـيف يسـلى ويلهى ... مع تهـيـيـجـه على الأشـجـان

. . . .

فـتـرى فى الذى يـصـيخ إليـه ... أمـرات المحـزون والجـذلان

فتـأمل فهل ترى فى وسع المصور القـدير ان يلتفت إلى لون أو ظل أو شكل أو خط أو حـركـة فى المهرجـان لم يتلفت إليـهـا ابن الرومى فى هذه القصيدة؟ وتأمل الشاعر هل تراه فى قصـيدته إلا كما قلنا فى بعض مقالاتنا: "كالرسـام الذى بسط أمامـه لوحته وأقـبل على الوجوه والأشكال يتـفرسـها ويطيل النظر إلى ملامحها وإشاراتها وما تشف عنه من المعانى، وتشير إليه من الدلائل ويراقبها فى التـفاتاتها ومواقفها وحركاتهـا لينثنى بعد ذلك إلى لوحته فثبت عليهـا ما توارد على بصره وقريحته من الألوان والمعـارف والهيئات من حيث هى تحفة فنية تستهـوى الحواس والأذواق؟ فهو يبدأ برسم زينة المهرجان واخـتيـال الدنيـا بمنظرها فـيه وبرود الوشى التـى أذالتهـا للناظرين، واللهـو والسـرور الذى شمل كل شىء وأدبل له من جـميع الهـموم والأحـزان، ثم يرسم حجرات الأمـير بزخارفهـا وتهاويلها وضيـوفها الغادين إليهـا الرائحين منها، وقـيام الكماة صـفا بعد صف مطرقـين إلى الأرض مغضـين بالأبصار حانين على السـيوف، ثم يرسم الأميـر فوق سريره، وقد طلع على الجـميع بوجه مهـيب يمكن العين منه لحظة ثم ينهاها عن إدامـة اللحظات، ثم يذكر

لك وقار الإمـارة وسمات الحلم والرزانة بين قـوم يعنون له ويجلون قدره من الحب والتبجيل لا من الصلـف والكبرياء، ثم يرسم المادحين بين يديه يرتلون عليـه الثناء ضـاربين الصـدور بالأذقـان وينصـرفـون من حـضـرته بالعطايا والحمـلان، بعد ما شـبعـوا من خوان يلوح فى مثل قـطع الروض وإن سمى بالخوان، ثم يرسم القـيان الكواعب الأبكار عاطـفات على المزاهر عطف الأم على الرضيع بـنهود مفـعمات، ولكنهـا صفر من درة الألـبان، ثم يرسم أثر الغناء على وجوه السامعين، فإذا هو شجن وسلوى وأمرات من الحزن والجذل وطرب يشوبه السـكون وسكون يشوبه الطرب. فلا تزال فى الـقصيـدة تنتقل بين أبياتها مـن صورة إلى صورة ومن منظر إلى منظر ومن حركـة إلى حركة حتى تأتى عـليها وقـد استعـرضت فى خيـالك متحـفًا واسـعًا من الأشكال والخطوط عملت فيه القريحة والنظر واشـترك فيه الفن والإحساس وروى لك أصدق الـرواية عن عين تلمح وتعى ونفس تحس فتسـتوعـب وخيال يـدخر الجمال المنظور فيثرى بالألوان والسمات . .

زعموا أن بعضهـم قال لابن الرومى: "لم لا تشبه كـتشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه؟ فقـال للأئمة: أنشدنى شيئًا من قوله الذى اسـتعجزتنى عن مثله، فأنشده قوله فى الهلال:

انظر إليه كزورق من فضة   قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال: زدنـى . . فأنشده قوله فى الأذريون وهو زهر أصـفر فى وسطه خمل أسود.

كـــــان أذريونـهـــــــا   والشـمس فيــه كـاليـة
مــــــداهــن من ذهـب   فـيــهـا بقــايا غـالـيـة

فصاح واغوثاه! تالله لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

ذاك إنما يصف مـاعـون بيتـه وأنا أى شيء أصـف! ولكن انظروا إذا وصفت ما أعرف أين يقع قولى من الناس إلى آخر القصة.

obeikandi.com

وقد تصح هذه القصة أو لا تصح، ولكنها على الحالتين تدل على رأى شائع فى التشبيه بين الذين كانوا يتعاطون الأدب فى عصر ابن الرومى وبين الدين يتعاطونه فى هذه الأيام. فلابد المعتز تشبيهات كثيرة أبلغ من هذه التى مرت فى القصة وأجمل وأنقى فى المعنى والديباجة، ولكنهم لا يختارون له فى مقام التحدى والتعجيز إلا هذه الأبيات وأمثالها، لظنهم أن نفاسة التشبيه إنما تقاس بنفاسة المشبه به وأن الغرض من التشبيه إنما هو مضاهاة أبيض على أبيض وأصفر على أصفر ومستدير على مستدير ومستطيل على مستطيل مما يرى بالعين ولا فضل فيه للشعور والتخيل، فالشاعر الذى يصف النجوم ويشبهها بالجواهر والحلى هو الشاعر غير مدافع وهو المثل الأعلى فى هذه الصناعة . . ثم يليه الشعراء على حسب الأسعار فى سوق المشبهات! وقصارى ما يطلبه الشاعر من التشبيه أن يثبت لك أنه رأى شيئين من لون واحد وشكل واحد كأنك فى حاجة إلى مثل ذلك الإثبات الذى لا طائل تحته، فأما أنه أحس وتخيل وصور إحساسه، وتخيله باللفظ المبين والخواطر الذهنية الواضحة، فليس ذلك من شأنه ولا هو مما يدخل عنده فى باب البلاغة والشاعرية، وهذا خطأ بعيد فى فهم الوصف والشعر يخرج عن القدرة النفسية إلى القدرة الآلية التى تحكى المناظر الظاهرة كما تحكيها المصورة الشمسية. فالمسافة عظيمة جدًا بين شاعر يصف لك ما رآه كما قد تراه المرآة أو المصورة الشمسية، وشاعر يصف لك ما رآه وشعر به وتخيله وأجاله فى روعة وجعله جزءًا من حياته، وليس يعنيك أنت أن يكون الشاعر صحيح العين مطلعًا على المرئيات المتشابهة ليتصل ما بينك وبينه ويقترب وجدانك من وجدانه، ولكنما يعنيك منه أن يكون إنسانًا "حيًا" يشعر بالدنيا، ويزيد حظك من الشعور بها، وتلك هى مزية ابن الرمى فى وصفه وتشبيهه ومزيته فى شعره كله من أوائل شبابه إلى اليوم الذى مات فيه. وينبغى هنا أن نذكر مرة أخرى أن ملكة الشعر غير ملكة الوصف وليستا بشىء واحد كما يفهم

كثير من القراء، فمن وصف وشبه ولم يشعر فليس بشاعر . . ومن شعر وأبلغك ما فى نفسه بغير وصف مشبه فلا حاجة به إذن إلى سرد الصفات لتتمم له ملكة الشاعرية . . .

من ثم نقول أننا إذا قسمنا العبقريات الفنية إلى أقسام وفصائل فخير ما نفهم به عبقرية ابن الرومى أنها عبقرية يونانية على المعنى المفهوم بين قراء الآداب من هذه الكلمة، إذ لا نعرف صفة لعبقرية ابن الرومى هى أوجز ولا أبين من هذه الصفة المجموعة فى كلمة واحدة: فإنه كان محبًا للحياة فى خفة وطفولة وأريحية دائمة كالحب الذى عهدناه فى جملة الفنون اليونانية، وكان مشخصًا لمحاسن الطبيعة وعناصرها كما شخصتها أساطير اليونان وولدت منها بنات الماء وعرائس الغاب وأرباب السحب والبحار وغيرها من ولائد الذوق والخيال، وكان مأخوذًا بالجمال فى كل شىء كما أخذوا به فى كل شىء، مستغرقًا فى الحس الدنيوى كما استغرقوا فيه. أما أنه كان كذلك لأنه من سلالة اليونان فذلك قول لا نجزم به ولا نجزم بنفيه، لأنه يستطيع أن يكون كذلكل ولم لم يكن من تلك السلالة التى اختلطت فيها سلالات الشرق والغرب والشمال والجنوب، فما اختص اليونان بإبداع الفنون واستجلاء الجمال، ولا يحسن بأحد أن يدعى ذلك لشعب من الشعوب. وكل ما امتازوا به على غيرهم أنهم منحوا الفنون حرية لم تمنحها فى الشعوب القوية الى توطدت فيها الدولة وتوطد فيها الدين فاشتمل على العلوم والفنون وأحاطها بقيود المراسم والموروثات، فلما خضع اليونان لمثل هذا السلطان نضب فيهم ذلك المعين الحر وأخلدوا إلى المراسم والموروثات إلا قليلا من الحنين المتجدد إلى الفن القديم، وامتياز اليونان بالحرية فى الفن فضل عظيم جليل ولكن ما مقدار ما يسرى منه فى الدم ويثبت مع الغرائز وينتقل مع السلالات؟؟ وما هو الحد الفارق بين اليونانية وغير اليونانية فى الشعوب الكثيرة التى يتناولها اسم اليونان فى آسيا وأوروبا وقبل التاريخ وبعد التاريخ؟ . . فأنت ترى أن القول

بالوراثة اليونانية فى ابن الرومى ليس أسهل ولا أصوب من القول بانفراد هذه الظاهرة الغريبة التى لا تزول غرابتها من بعض الوجوه حتى لو ظهرت فى بلاد اليونان. وقد يكون فيما مر بك من شرح مزاجه ونشأته تعليل صالح لهذا الإحساس المتوفز يساعده على تفسيره بعض التفسير، فحسبنا إذن من كلمة العبقرية اليونانية أنها كلمة مفهومة فى لغة الآداب وإن لم تكن مفهومة فى لغة الأنساب.

***

obeikandl.com